BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

المثـــّال مختـــار والنهضـــة المصريـــة

مصطفى الرزاز:

نرحب بالأستاذ الدكتور عماد أبو غازي وهو شخصية متميزة، كما أنه يعتبر من أكثر الخبراء في هذا المجال، فإذا ذكر أحد "محمود مختار"، يبدو في الصورة الدكتور عماد أبو غازي. وبالنسبة للذين لا يعرفون الدكتور عماد أبو غازي أقول إنه شخصية ذات ثقافة عميقة وواسعة، وتفكير متزن، كما أنه يتميز بنـــزعة نقدية ثورية، وربما يقرأ البعض له في الصحف اللمحات النقدية التي يكتبها، كما أنه يتميز بالتفاني والالتزام في العمل بصورة تدعو حقًا إلى الإعجاب. والدكتور عماد أبو غازي هو ابن الأستاذ الراحل بدر الدين أبو غازي، وهو رائد النقد الفني طوال الستينيات وحتى الثمانينيات، وكان من أهم المناصرين لنقاد الفن المصريين في طوال تاريخ الحركة الفنية وأرى وقد أكون مخطئًا أنه لم ينازعه أحد في عمق بصيرته وقراءاته العميقة وتحليلاته الهادئة وبعده عن النـــزعة الإنشائية أو التوليفات المبالغ فيها، فقد كان باحثًا بمعنى الكلمة ومدققًا وكان عنده اهتمام أكبر بجيل الرواد الذي قام بعمل كتاب عنه وأصدرته جمعية محبي الفنون الجميلة عام ١٩٧٥ عن الرواد، وكان له اهتمام كبير في الكتابة عن "محمود سعيد" و"محمود مختار"، ويعتبر المنظِّر الأهم لمحمود مختار وحامل رسالة العناية بتراثه وحتى تم تأسيس متحف "محمود مختار" وأعد المؤسسات المرتبطة بالمتحف، كما أسس جماعة أصدقاء مختار إلى أن توفي في الثمانينيات. وكما يعلم أغلبيتنا أن الأستاذ بدر الدين أبو غازي كان رئيسًا لجمعية محبي الفنون الجميلة، وهي الجمعية الأكثر عراقة في مصر؛ إذ إنها أول جمعية ظهرت في مصر وهي جمعية مهمة، وفي العشرينيات كانت هذه الجمعية هي التي قامت بعمل مبادرة لإنشاء متحف الفن الحديث ولجان للمقتنيات التي تحفظ أعمال الفنانين المصريين والأجانب لكي تقوم بعمل مجموعة وطنية، والجمعية تعتبر مؤسسة مهمة، وكان يلتف حولها

الأمير يوسف كمال ومحمد محمود خليل بك اللذان كانت لهما علاقة بالقصر، وكانا لهما دور كبير في توجيه القصر والحكومة لإصدار قوانين لتأسيس الجمعيات الفنية والجامعات الفنية واللجان الفنية، ومن عباءة جمعية محبي الفنون الجميلة صدرت بالفعل مؤسسات الحركة الفنية الكاملة بما فيها مدرسة الفنون الجميلة ويرجع الفضل في وجودها إلى الأمير يوسف كمال ومحمد محمود خليل بك. وقد أصبح الأستاذ بدر الدين أبو غازي وزيرًا للثقافة المصرية، وفي الواقع كان طوال مشواره رائدًا بمعنى الكلمة في جميع المجالات. وكانت والدة الدكتور عماد أبو غازي أستاذة قديرة من أساتذة التربية الفنية وصاحبة ثقافة عريقة وكانت شقيقتها الفنانة منحة الله حلمي وهي واحدة من أهم رائدات فن الجرافيك المصري المعاصر، بالإضافة إلى أنها كانت أستاذ التصوير في كلية التربية الفنية.

في الحقيقة، لقد قصدت ذكر عائلة الدكتور عماد أبو غازي لكي أوضح أنه من وسط فني وثقافي فضلاً عن أن عائلة أبو غازي نفسها هي التي رعت "محمود مختار"، وذلك لأن "محمود مختار" عندما هجر عائلة الأب اتجه إلى عائلة الأم وقريتها، وكانت عائلة "أبو غازي" من قرية عائلة الأم التي تبنته والتي وجهته وفتحت أمامه السبل للانخراط في مجال الفن بشكل عام ثم النحت بشكل خاص.

إن محمود مختار الذي سيحدثنا عنه الدكتور عماد أبو غازي هو رائد فن النحت في مصر، ونستطيع القول إنه النحات الرئيسي في مصر الحديثة، والشيء المدهش أنه مثل كبار الأساتذة الكلاسيكيين في عصر النهضة، كما نتكلم عن "دافنشي" أو "ديورار"، أو في الفن الحديث مثل"سيزان" أو"مونيه" أو "بيكاسو" سنجد أن كل واحد منهم أقام بؤرة جديدة، والتفت حوله موجة لم تستطع الفرار من جاذبيته بحيث أصبحت محيطة به وفقدت القدرة على أن تولِّد شخصيات جديدة لعمل بؤرة جديدة تلتف حولها أطياف جديدة. وقد تبلورت شخصية محمود مختار في القاهرة، وبرز أداؤه وموهبته وتعطشه الثقافي، هذا بخلاف أن الأقدار وضعته في مواقف جعلته يحتك بالقيادات الوطنية ابتداءً من سعد زغلول إلى ويصا واصف، ومن طلعت حرب إلى هدى شعراوي، وقد وضعته الأقدار في وسط الحركة الوطنية، وفي الوقت نفسه كان قدره أن يكون أول نحات يأتي بعد انقطاع لقرون طويلة من أيام الفراعنة في فن النحت مما جعله صاحب مسئولية كبيرة، وكانت فرصة أن يتاح له السفر إلى فرنسا بعد أن تعلم في مدرسة الفنون الجميلة في مصر، إذ إنه تعلم في مصر على الطراز الفرنسي، وعند ذهابه إلى فرنسا شعر أنه يفتقد شيئًا فكان يعود في وسط البعثة ويتجه إلى المتحف ويدرس الفن المصري ويذهب إلى القصر ويشاهد التماثيل لكي يتشبع من الداخل.

وهناك توافق عجيب جمع بينه وبين فن الحضارة المصري وأيضا الفن الفرنسي المعاصر آنذاك، وحيث جمع محمود مختار بينهما في صورة توافقية مدهشة. إن محمود مختار رائد كبير ومهم واستثنائي

ولد في مناخ استثنائي، هذا بالإضافة إلى أن شخصيته قد تأثرت بالظروف التي أحاطت به ولقاءاته بالناس ونجاحاته في فرنسا وتكبده المشقة للوصول إلى هذا النجاح بعد انقطاع المال الذي كان يحصل عليه في أثناء الحرب فلم يجد أمامه ليعيش إلا أن يكون حاملا لصناديق الذخيرة من المراكب إلى أماكن أخرى، وما كان أحد يتصور أن هذا الفنان الحساس يساهم في نقل صناديق الذخيرة القاتلة ليجد قوت يومه؟ وقد استمر كفاحه إلى أن أصبح مديرًا لمتحف في فرنسا، وقد تقلب محمود مختار وعاصر الجو البوهيمي في باريس وشاهد الاستعراضات التي كانت تقام في المونمارتر، كما سنحت له الظروف مقابلة سعد باشا زغلول ورفاقه في فرنسا حيث كان يشترك معهم في حوارات حين كانوا يرسمون خريطة مصر الوطنية الجديدة ويؤسسون حزب الوفد، وقد شعر محمود مختار كنتيجة لكل ذلك أنه صاحب مسئولية وليس فقط مجرد نحات يطور من نفسه أو يقوم بإبداع أعمال عظيمة، فانخرط في مشروع تمثال نهضة مصر والذي سوف يسرد لنا قصته الدكتور عماد أبو غازي. وقد نمت قدرات محمود مختار النحات بصورة فائقة وطفرية بالنسبة للحركة الفنية المصرية، بالإضافة إلى كونه مصممًا موهوبًا وتميزه بالقدرة الإبداعية والخيال المعماري المدهش المطعَّم برصانة المصريين القدماء، ناهيك عن النـــزعة التعبيرية التي كان يمتلكها والتي تتميز بنوع من الهدوء والوقار المصري. وكان محمود مختار يقوم بعمل نحت بارز ونحت غائر وذلك لأن التماثيل لم تكن تتحمل المفاهيم الرمزية إلا في حدود ضيقة، وهنا كانت الفرصة للتعبير في النحت البارز والغائر الذي مكنه من إبداع موضوعات تكوينية تتناول قضايا معينة. وقد لجأ محمود مختار أيضًا إلى الرسم والرسم الكاريكاتيري وذلك عندما لا يسعفه النحت في التعبير عن شيء بصورة تهكمية أو ناقدة، وكان أيضًا يلجأ للكتابة، وكان كاتبًا فصيحًا وقديرًا ويتميز بالعمق وبالقدرة على صياغة أفكاره وبلورتها والتوصل فيها إلى نقط التوجيه، وكان متحدثًا وخطيبًا بارعًا، وقد عرض عليه وهو في الحادية والعشرين من عمره أن يكون ناظرًا لمدرسة الفنون الجميلة والذي يماثل منصب العميد الآن إلا أنه رفض قبول هذا العرض، وعرضت عليه مناصب كثيرة أخرى، ولكن كان عنده يقين أن هذه المناصب ستأخذ من موهبته ومن قدرته على أن يكون متحررًا ومستقلاً. وقد أسس جمعية "الخيال" وكانت جمعية مهمة ضمت أدباءً مثل المازني والعقاد وبعض مشايخ الأزهر المستنيرين مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق والذي كان صديقًا حميمًا لمحمود مختار، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق عندما يذهب إلى فرنسا يجلس في مرسم محمود مختار، و لم يعلق عليه أبدًا قائلا أن النحت حرام أو رجس من عمل الشيطان، لقد كان هذا الشيخ وغيره من علماء الأزهر متفتحين ويتميزون بالوعي بدينهم وبثقافتهم. والآن أدعو الدكتور عماد أبو غازي إلى الحديث عن "مختار والنهضة المصرية".

عماد أبو غازي:

بداية، سأحاول أن أقدم وجهة نظر ليست بالضرورة في الفن التشكيلي رغم أن الموضوع حول فنان تشكيلي، ولكنني سأحاول أن أجمع بين مجموعة من الأشياء بوصفي باحثًا في الوثائق والتاريخ، وفي الوقت نفسه كقريب لمحمود مختار مما مكنني من أن أرث مجموعة من وثائقه وأوراقه وصوره وتراثه بالإضافة إلى رؤيتي كشخص له اهتمام بالفن التشكيلي بدرجة أو بأخرى بحكم البيئة التي نشأت فيها. وسأحاول أن أمزج في المحاضرة بين أحداث الحياة السياسية والاجتماعية في مصر وبين أعمال محمود مختار.

يعتبر محمود مختار أحد رموز التحديث والاستنارة والنهضة في مصر في النصف الأول من القرن العشرين وواحد ممن قامت على أكتافهم دعائم عمليات التحديث ومحاولة بناء مصر الحديثة في أعقاب الثورة المصرية الكبرى ثورة ١٩١٩. في تقديري، لكي نتحدث عن النهضة أو عن التحديث لابد أن نتحدث عن التمرد بشكل أساسي، فالنهضة وليدة التمرد ولا يمكن أن تتحقق النهضة أو تقوم بدون أن يكون هناك جيل من المتمردين، المتمردين على أوضاعهم وعلى أوضاع مجتمعهم، وهذا ما تحقق لمصر في النصف الأول من القرن العشرين عندما ولد جيل شيد معالم نهضة جديدة في مصر وتميز معظم رجاله بالثورة والتمرد على التقاليد البالية وعلى الثوابت المجتمعية، لأن النهضة هدم لثوابت وبناء لثوابت جديدة مكانها.

ولو نظرنا إلى جميع رواد النهضة مثل طه حسين وهيكل والعقاد وتوفيق الحكيم ومختار وسيد درويش، فسنجد أن كلاً منهم كان متمردًا على الأشكال التقليدية في النوع الفني أو في المجال الإبداعي الذي برع فيه، كما أنه كان متمردًا أيضًا على قيم وتقاليد وثوابت المجتمع التي كانت تحتاج إلى تغيير. ولكي نعرف كيف تتولد لدى نخبة هذا الجيل المثقفة روح التمرد والثورة والرغبة في التغيير، فلابد أن نرجع إلى الظروف التي صاحبت مولدهم وتنشئتهم في أواخر القرن التاسع عشر. حيث شهدت مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر محاولة جديدة للنهضة بعد محاولة محمد علي التي انتهت بالفشل، وبدأت هذه المحاولة في عصر الخديوي إسماعيل، وامتدت إلى مجالات مختلفة في الثقافة وفي السياسة وفي مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ورغم أن تجربة التحديث في عصر إسماعيل انتهت هي الأخرى بالفشل بعد هزيمة الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر، إلا إنها أحدثت تحولات مهمة في الحياة المصرية، لقد شهدت تلك السنوات تغيير وجه الحياة المصرية، كانت المدينة المصرية تتغير وكذلك كانت القرية تتغير، كانت مصر تشهد حركة تحول من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث، تنشأ وتظهر فيه أشكال فنية جديدة لتحل محل الأشكال التقليدية، وهذه هي الفترة التي أُنشئت فيها دار الأوبرا المصرية في عهد الخديوي إسماعيل، والتي بدأت فيها فرق مسرحية من الشام تأتي لتعمل على المسارح المصرية، والتي بدأت فيها فنون النحت والتصوير الأوروبية تنتشر

في المجتمع المصري حيث كان يقوم بمباشرتها فنانون أوروبيون أزاحوا تدريجيـــاً الأشكال الفنية التقليدية التي كانت متواجدة في هذه الفترة.

لقد انتهت هذه المحاولة الثانية للنهضة بكبوة ثانية مع الاحتلال البريطاني لمصر. وبعد الاحتلال البريطاني كسرت محاولة النهضة الثانية في القرن التاسع عشر والتي بدأت في عهد الخديوي إسماعيل، وعاشت مصر في فترة ظلام مرة أخرى تحطمت فيها مشروعات النخبة المصرية للديمقراطية ولبناء مجتمع مستقل ودولة حديثة، وانتهى الأمر بنفي زعيم الثورة أحمد عرابي، وسيطرة الخديوي توفيق على مقاليد الأمور في ظل الاحتلال البريطاني.

وفي هذه الفترة المليئة بالتحولات، التي عاشت فيها مصر بين مد وجزر، بين نهوض وإخفاق، بين أحلام بناء مصر للمصريين وواقع سقوطها في قبضة الاحتلال، في ظلال هذه الفترة ولد معظم الرواد من جيل أبناء الجيل الذي قامت على أكتافه النهضة المصرية في حلقتها الثالثة في النصف الأول من القرن العشرين.

في سنوات الاحتلال الأولى ولد من أصبحوا فيما بعد رواد نهضتنا الحديثة، لكن تكوينهم المتمرد الساعي إلى التغيير تشكَّل في ظل محاولة جديدة للإحياء والنهوض والبعث الوطني بدأت بعد الرحيل المبكر للخديوي توفيق عام ١٨٩٢، وتولى الخديوي عباس حلمي الثاني عرش مصر، وحاول وهو حاكم شاب أن يستعيد سلطاته من الاحتلال البريطاني، الأمر الذي دفعه إلى الاستعانة بالشباب الوطني الذي بدأ في الظهور في هذه الفترة بزعامة مصطفى كامل، كما دفعه لمحاولة الاصطدام مع المستعمر البريطاني مستندًا إلى بقايا الحركة الوطنية التي كانت موجودة في مصر.

في ظل هذا المناخ، ولد محمود مختار وولد أقرانه من أبناء الريف المصري الذين صنعوا النهضة، نشأ معظمهم في الريف ثم انتقلوا إلى المدينة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. في أوائل القرن العشرين، تحديدًا في عام ١٩٠١، انتقل مختار إلى القاهرة لاحقًا بأمه ربما في تمرده الأول الذي بدأ في طفولته المبكرة. فقد رفض مختار الحياة في القرية لأنه عندما كان يصنع التماثيل من الطين ويقوم بحرقها في فرن المنـــزل كان أخواله يعتبرون أن ما يقوم به عبارة عن إهدار للوقت، وكانت أمه قد انتقلت إلى القاهرة للعلاج، فقرر مختار الذي كان طفلاً صغيرًا لا يتعدى عمره السنوات العشر أن يهرب من القرية وأن يذهب إلى القاهرة ليلحق بأمه التي كانت تخطط لإلحاقه بالأزهر لكي يتخرج شيخًا بعد أن يكون قد درس دراسة دينية، وكان هذا منتهى طموح أي أسرة ريفية متوسطة في هذا الوقت.

وكانت الفترة التي انتقل فيها مختار إلى القاهرة تشهد صعودًا للحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل الذي أسس فيما بعد في عام ١٩٠٧ الحزب الوطني في أعقاب حادثة دنشواي. وفي أعقاب وفاة مصطفى كامل في أوائل عام ١٩٠٨، انتقلت زعامة الحركة الوطنية إلى محمد فريد، وفي هذا

العام ١٩٠٨ شهدت مصر حدثين تاريخيين مهمين على المستوى الثقافي، وكانت لهما انعكاساتهما السياسية والاجتماعية: افتتاح الجامعة الأهلية المصرية في شهر ديسمبر، تلك الجامعة التي تأسست برعاية مجموعة من المفكرين والمثقفين وبعض أفراد الأسرة الخديوية الحاكمة، وكان منهم الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) وأخته الأميرة فاطمة إسماعيل التي تبرعت بأملاكها وأراضيها لإنشاء الجامعة المصرية والإنفاق عليها، أما الحدث الثاني والذي وقع قبلها بشهور، وعلى وجه التحديد في مايو من نفس العام، فكان إنشاء مدرسة الفنون الجميلة على يد الأمير يوسف كمال، لقد كانت محاولة جريئة لإنشاء أول مدرسة للفنون على غرار المدارس الفنية الأوروبية تعتمد على استقدام مجموعة من الفنانين الأوروبيين لتعليم الشباب المصري أصول الفن التشكيلي. وكان محمود مختار أول طالب يلتحق بهذه المدرسة يوم افتتاحها في مايو من عام ١٩٠٨، كان أول طالب يقف على باب المدرسة في انتظار اجتياز امتحان القبول، وفي أثناء وقوفه على الباب رسم على الحائط رسمًا شاهده ناظر المدرسة فقبل مختار في المدرسة فورًا، وقد التحقت بالمدرسة مجموعة من فناني الجيل الأول من التشكيليين المصريين مثل راغب عيَّاد ويوسف كامل ومحمد حسن وغيرهم لكي تبدأ مسيرة جديدة في الفن المصري بعد ما كان الفنان المصري لا يمارس إلا الفنون التقليدية التي ورثها عن الأجداد منذ العصور الوسطى، لقد بدأت بافتتاح تلك المدرسة مرحلة جديدة من تاريخ النهضة الفنية في مصر.

وفي عام ١٩١١، أقيم أول معرض لطلاب مدرسة الفنون في القاهرة، وكان أغلب الأعمال أقرب للزخرفة، وكان هذا المعرض أول تقديم لجيل مختار للمجتمع المصري، ولأول مرة يقدم شبان مصريون أعمالهم التشكيلية من النحت والتصوير وغيرها من الأعمال الفنية في معرض عام يشاهده الجمهور بعد أن كانت كل الأعمال الفنية الحديثة الموجودة في ميادين القاهرة أو في منازل الأثرياء أو في المعارض القليلة التي تقام في صالات العرض من أعمال لفنانين أوروبيين، وكانت القاهرة قد عرفت تماثيل الميادين في الفترة الحديثة منذ فترة مبكرة في القرن التاسع عشر ـــ وأقول الحديثة لأنه في العصور الوسطى كانت هناك تماثيل أيضًا على رؤوس الجسور والكباري والقناطر، وكان يُطلق على ميدان السيدة زينب اسم ميدان "قناطر السباع"، حيث كانت هناك قنطرة أو كوبري عليه تماثيل لأسود ـــ أما في القرن التاسع عشر فقد بدأ استقدام نحاتين أوروبيين لنحت تماثيل لأفراد أسرة محمد علي، ومنها تمثال محمد علي وتمثال إسماعيل في الإسكندرية وتمثال إبراهيم باشا في القاهرة وتماثيل لكبار رجال الدولة مثل لاظوغلي ونوبار وسليمان باشا الفرنساوي، وكانت التماثيل جميعها من عمل فنانين أوروبيين، حتى تمثال الزعيم مصطفى كامل الذي أقيم عقب وفاته صنعه نحات أوروبي وليس نحاتا مصريا، وقد أقيم التمثال بأول اكتتاب يتم في مصر لإقامة تمثال، إلا أنه لم يكن اكتتابا شعبيا واسعا مثل الاكتتاب الذي تم لإقامة تمثال نهضة مصر، إنما كان اكتتابا داخل إطار الحزب الوطني وأنصاره.

وفي أعقاب إنهاء مختار لدراسته في عام ١٩١١، خرج في أول بعثة مصرية لدراسة الفنون الجميلة في باريس بمنحة من الأمير يوسف كمال، وكما ذكر الدكتور مصطفى الرزاز في تقديمه أن مختار عندما ذهب إلى باريس أعاد اكتشاف نفسه مرة ثانية وأعاد اكتشاف مصريته ومن الممكن القول بأن أعمال المرحلة الأولى من الدراسة هي أعمال مدرسية طبق فيها مختار المعايير التقليدية التي تعلمها في مدرسة الفنون والمعايير الأوروبية التقليدية لفن النحت. لكن، عندما ذهب إلى باريس عرف الجانب الآخر، فقد أعاد النظر في فن النحت المصري القديم وأعاد صياغته مرة أخرى في لحظة من لحظات التمرد وتحطيم ثوابت الفن التشكيلي وثوابت المجتمع التي كانت سائدة في هذا الوقت.

وخلال دراسة مختار في باريس قامت الحرب العالمية الأولى وقام الإنجليز بعزل الخديوي عباس حلمي الثاني وتعيين حسين كامل سلطانًا على مصر، وأصبحت مصر رغمًا عنها طرفًا في عمليات عسكرية تدور على أرضها. وهكذا، أصبحت مصر ساحة لحرب لا علاقة لها بها، أما مختار فقد أصبح مقطوع الصلة بمصدر تمويله وكما ذكر الدكتور مصطفى الرزاز اضطر إلى أن يكون عاملاً في مصنع للذخيرة، وكان يقوم بنقل الذخائر التي تصنع منها دانات المدافع، واضطرت اليد التي تصنع الفن والسلام أن تنقل أداة للتدمير والقتل. وبمجرد أن اقتربت الحرب من نهايتها وجد مختار فرصة له للعمل بمتحف للتماثيل الشمعية في باريس و هو متحف "جريفان" للشمع، وفي هذا الوقت كان كل الفنانين الشبان من الفرنسيين في جبهة القتال، فأصبحت هناك وظائف خالية للأجانب، وتولى مختار منصبًا مهمًّا في هذا المتحف، وهناك صور نادرة للتماثيل الشمعية التي صنعها مختار في متحف "جريفان" للشمع ومنها تمثال لأم كلثوم وآخر لراقصة الباليه آنا بافلوفا.

وفي هذه الفترة تغير الوضع السياسي في مصر، وتوفي السلطان حسين كامل وتولى أحمد فؤاد السلطنة من بعده وانتهت الحرب العالمية الأولى في نوفمبر ١٩١٨ وبدأ تاريخ مصر السياسي في التغير. ففي اليوم التالي لانتهاء الحرب، توجهت مجموعة من الساسة المصريين وعلى رأسهم الزعيم سعد زغلول إلى دار المعتمد البريطاني يطالبونه بإنهاء الأحكام العرفية والسماح لوفد من المصريين للسفر للمشاركة في مؤتمر الصلح في باريس، وكان ذلك في اليوم الذي أصبح يعرف في تاريخنا الوطني بيوم (عيد الجهاد الوطني) وهو يوم ١٣ نوفمبر، وظلت مصر تحتفل به كل عام باعتباره عيدًا من أعيادنا الوطنية إلى أن توقف الاحتفال به بعد عام ١٩٥٢.

وفي أعقاب حركة القادة السياسيين للمطالبة بالمشاركة في مؤتمر الصلح، تصاعدت الأحداث السياسية كما نعرفها جميعًا وبدأت حركة جمع التوكيلات للوفد ليمثل مصر في هذا المؤتمر وانتهى الأمر بالقبض على سعد زغلول ورفاقه ونفيهم إلى جزيرة مالطة، فانفجرت الثورة الشعبية المصرية في ٩ مارس سنة ١٩١٩. وكانت هذه الأحداث الدامية في مصر التي انتهت بإرغام قوات الاحتلال على السماح بذهاب الوفد المصري لمؤتمر الصلح في باريس والإفراج عن سعد زغلول وزملائه، هي

التي ألهمت الفنان الشاب مختار ـــ الذي كان لا يزال يعمل في باريس ويتعاون مع لجنة الطلبة المصريين التي أصبحت سكرتارية تساعد وتدعم حركة الوفد المصري في المفاوضات ـــ بأن يستخدم فن النحت في تجسيد رمز لهذا الحدث المهم في تاريخنا "الثورة المصرية". وفي البداية صنع مختار نموذجًا لتمثال "نهضة مصر"، وكان هذا النموذج يصور رجلاً عربيًّا يرتدي عقالاً وفي يده سيف يستعد لرفعه، فقد كان هذا هو الشكل الأول الذي تصوره مختار لتمثال النهضة، لكن بعد أن انتهى منه قام بتحطيمه و لم يتبقَّ منه غير صورة له نشرها الناقد المصري الراحل جبرائيل بقطر في مقال له منشور ضمن كتيب صدر عام ١٩٤٤ بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل مختار.

وبعد أن حطم مختار نموذجه الأول لتمثال النهضة انتقل بعد ذلك إلى نحت نموذج جديد للتمثال، تمثال "نهضة مصر" بشكله الحالي الذي نعرفه جميعا. وقد غير فيه تمامًا الفكرة الأساسية التي كانت قائمة في التمثال الأول، فانتقل إلى اختيار نموذج مختلف يصور الفلاحة المصرية وتمثال أبي الهول الذي ينهض من كبوته أو من صمته. وكان النموذج الثاني للتمثال والذي عرضه مختار في باريس هو الذي حصل على شهادة تقدير من معرض الفنانين الفرنسيين، وفي هذا الوقت وصل سعد زغلول وزملائه إلى فرنسا للمشاركة كمراقبين في مؤتمر الصلح في باريس، وشاهد سعد زغلول التمثال وكتب كلمات إلى مختار يحيي فيها هذا العمل، وتقول هذه الكلمات:

"حضرة المصور الماهر مختار، شاهدت التمثال الذي رمزت به لنهضة مصر فوجدته أبلغ رمز للحقيقة وأنهض حجة على صحتها، فأهنئك على هذا الخيال الواسع وهذا الذوق السليم وهذا الفن الساحر وأهنئ مصر أنك من أبنائها العاملين على إحياء حاضرها وأرجو أن تتم هذه النهضة حتى تبلُغ كمالها وتشفع تمثال النهضة بتمثال الاستقلال.

والسلام."

سعد زغلول

باريس ٩ مايو سنة ١٩٢٠

هذه الرسالة وثيقة نادرة كتبها سعد زغلول تحية لمختار على تمثال "نهضة مصر".

وألهمت فكرة التمثال وحصوله على جائزة في معرض الفنانين في باريس مجموعة من الساسة المصريين بأن يتبنوا فكرة إقامة هذا التمثال في أحد ميادين العاصمة القاهرة. وبدأت الفكرة برسالة كتبها مجد الدين حفني ناصف وأرسلها إلى جريدة الأخبار القديمة التي كان يصدرها أمين الرافعي، وقد تلا هذه الرسالة رسالة أخرى أرسلها الدكتور حافظ عفيفي دعا فيها جريدة الأخبار لتبني حملة للاكتتاب الشعبي لإقامة تمثال نهضة مصر في أحد الميادين الرئيسية في القاهرة، ورسالة ثالثة من ويصا

واصف، وبالفعل بدأت حملة الاكتتاب الشعبي التي وصلت حصيلتها إلى ٣٠٠٠ جنيه وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ولكن اللافت للنظر في هذه الحملة طبيعة المتبرعين فيها، وضمن الأرشيف الخاص لمختار مجموعة من الرسائل التي كانت تصاحب تبرعات الأهالي، وقد نشر نصوصها بدر الدين أبو غازي في كتابه الثاني عن مختار الذي صدر سنة ١٩٦٤ بعنوان "المثال مختار"، من هذه الرسائل رسالة من بائع ترمس وأخرى من فلاح وثالثة من ربة منـــزل ورابعة من عامل في السكة الحديد وخامسة من طفل صغير في المرحلة الابتدائية في مدرسة "خليل أغا" بالقاهرة وغيرهم الكثير. ولقد شملت حركة التبرعات الأمة كلها وأصبح تمثال "نهضة مصر" رمزًا للأمة المصرية ورمزًا لحركة تحول المجتمع المصري من حالة السكون إلى حالة الحركة، وهنا تكمن أهمية التمثال ودلالته أكثر مما تكمن في القيمة الفنية الموجودة فيه، وبدأ العمل بدعم من الحكومة خاصة عندما كان يرأسها مستنيرون من أمثال عدلي يكن وعبد الخالق ثروت.

ثم صدر دستور ٢٣ وتشكلت أول حكومة حقيقية منتخبة وهي حكومة الوفد المصري، وبدأت الحكومة نفسها تشكل دعمًا مستقرا لإقامة التمثال، وتم استكمال المبلغ الذي جمعه المصريين لإقامة التمثال من موازنة الحكومة لتوفير الإمكانيات لمختار لنقل حجر الجرانيت الذي اختير لكي يصنع منه التمثال من محاجره في أسوان إلى القاهرة إلى ميدان محطة مصر في القاهرة وبدأ مختار في تشييد التمثال.

وكانت التقلبات السياسية التي شهدتها مصر في تلك الحقبة والانقلابات الدستورية المتوالية تنعكس على حركة العمل في التمثال، وعندما تأتي حكومات موالية للسرايا يتوقف العمل في التمثال وعندما تكون الحكومة حكومة شعبية أو حكومة ائتلافية تضم الوفد وحزب الأحرار الدستوريين يتحرك العمل في التمثال مرة أخرى إلى الأمام، وقد أكمل مختار عمله في التمثال تماما في أواخر عام ١٩٢٦، ولم يزح الستار عن التمثال إلا في ٢٠ مايو ١٩٢٨، والسبب هو أن الملك فؤاد كان يرى أن ما قام به مختار من اختيار الفلاحة المصرية رمزاً للنهضة هو تحدي لسلطة القصر وتحدي للحاكم المطلق، فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك تمثال في أي ميدان في القاهرة إلا تماثيل أفراد الأسرة الحاكمة أو تماثيل رجال الدولة الكبار مثل نوبار باشا ولاظوغلي وسليمان باشا الفرنساوي، وحتى تمثال الزعيم مصطفى كامل لم يُسمح بإخراجه من مكانه في مقر الحزب الوطني ومدرسة مصطفى كامل إلا بعدها بسنوات طويلة، فكان اختيار الفلاحة المصرية رمزًا لنهضة مصر وتحديًا للسلطة، والذي زاد من ضراوة هذا التحدي أن مختار – وقد أصبح النحات الأول في مصر الذي تلتف الجماهير حول فنه – لم يصنع تمثالاً واحدًا للملك فؤاد، وعندما وجه له بعض أصدقائه النصح بضرورة عمل بورتريه نصفي للملك حتى يرضيه بدأ في إعداد تمثال نصفي أبدى الملك ملاحظات عليه من الناحية الفنية، فما كان من مختار إلا أن دمر التمثال تمامًا ولم يكمله ولا توجد له إلا صورة وحيدة في مرحلة

التشكيل بالطين ولم يستكمل بعدها، وكانت كل الأعمال الأخرى التي صنعها مختار لشخصيات كانت من الشخصيات السياسية الذي كانت هناك درجة من درجات البعد بينهم وبين القصر مثل عبد الخالق ثروت وعدلي يكن والذين كانوا من وجهة نظر مختار يمثلون رموزًا للاستنارة، أو لبعض أصدقائه وصديقاته.

وفي مايو عام ١٩٢٨ أزيح الستار عن تمثال "نهضة مصر" في موضعه القديم في ميدان محطة مصر والذي أصبح الآن ميدان رمسيس.

ننتقل إلى جانب آخر من جوانب شخصية "مختار" والمرتبطة أيضًا بالنهضة المصرية وهي جانب التمرد في هذه الشخصية، فإلى جانب محاولات مختار لإرساء قيم جديدة في الفن المصري وفي المجتمع المصري، فقد كان مختار رافضًا لتقديس الأشخاص مهما كان دورهم، وفي موقفه من سعد زغلول خير دليل على ذلك، فرغم تقديره لسعد وزعامته انتقده من خلال فنه عندما وجد في سلوكه السياسي ما يستوجب النقد، فقام مختار بعمل تمثال صغير ارتفاعه لا يزيد عن ٣٥ سم لسعد زغلول وهو نموذج لهذا التمرد في حياته حيث إنه تمثال كاريكاتيري، وفي مرحلة من المراحل كان مختار ناقدًا لسعد زغلول ومختلفًا معه سياسيًّا، فصنع هذا التمثال الكاريكاتيري الذي يصور سعد باشا في ثياب فقير هندي، وفي الوقت نفسه يرتدي بابيون وياقة منشَّاه وأسمى هذا التمثال "المنافق". وفي هذه الفترة كان مختار يشن حملة من الرسوم الكاريكاتيرية ضد سعد زغلول في جريدة السياسة الأسبوعية وفي مجلة الكشكول وكان يسميها "الزغلوليات"، وإلى جانب أنه كان نحاتًا فقد كان رسام كاريكاتير بارع، المهم في هذا الجانب أن مختار هو الذي صنع بعد ذلك أهم تمثالين لزعيم الأمة، وعندما كان يختلف معه كان يوجه له النقد اللاذع، لكن الزعيم لم يضق صدره من هذا النقد بل كان يتقبله ويزور مختار في موقع العمل أثناء نحت تمثال "نهضة مصر"، لأنه كان يعتبر نفسه كشخصية عامة لابد من أن تتقبل النقد حتى لو وصل هذا النقد إلى درجة التجريح، وفي أعقاب وفاة سعد زغلول، دخلت مصر في أوائل الثلاثينيات في مرحلة من الصدام السياسي، فقد بدأ انقلاب دستوري شديد قاده إسماعيل باشا صدقي عام ١٩٣٠ حيث ألغى دستور ١٩٢٣ وأتى بدستور جديد يقيد سلطة الشعب وأغلق البرلمان أكثر من مرة، وفي هذه الفترة أوقفت حكومة صدقي باشا العمل في تمثاليّ سعد زغلول في القاهرة وفي الإسكندرية وكان مختار مُكلفًا بنحتهما لتخليد ذكرى سعد زغلول. وفي هذه الفترة قام مختار بنحت مجموعة من الأعمال الفنية ومن أهمها تمثال "الخماسين" والذي صنع منه تصميمين، فكان هذا التمثال تعبيرًا عن المد والجزر وعن مرحلة الصراع ومرحلة المواجهة مع السلطة الاستبدادية في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات وهي المرحلة التي شهدت منع مختار من استكمال تماثيل سعد زغلول، وشهدت إبعاد طه حسين عن الجامعة وسجن العقاد بتهمة العيب في الذات الملكية، وكانت هذه المرحلة عبارة عن مجموعة من الانتكاسات للمكاسب التي تحققت بعد ثورة ١٩١٩، وكان قطبا

الصراع في هذه المرحلة هما الملك فؤاد الذي يمثل السلطة الاستبدادية، ومصطفى النحاس زعيم الأمة الذي أكمل مسيرة الزعيم سعد زغلول، وكان مختار ضمن جبهة التمرد ضد الاستبداد، رحل وبينه وبين الحكومة قضايا لم تنته لصالحه إلا بعد وفاته.

كذلك كان من القيم الأساسية التي وضعها مختار من خلال أعماله في مسيرته للتمرد على الثوابت التقليدية إعلاء قيمة المرأة وقيمة العمل، ونجد أن إحدى القيم الأساسية في أعمال مختار الفنية هي قيمة المرأة وهي تعمل، وتحديدًا المرأة الفلاحة وهي تعمل في الحقل، وكانت المرأة رمزًا في كل أعمال مختار الفنية، المرأة وهي تحب، المرأة وهي تعمل، المرأة وهي ذاهبة إلى الترعة أو إلى النهر تجلب الماء مصدر الحياة، فقد ربط مختار دائمًا بين المرأة والعمل والحياة، وأصبحت المرأة عنده رمزًا للحضارة المصرية ورمزًا للعطاء لمصر. وتعتبر مجموعة التماثيل التي تمثل الفلاحات والماء هي المجموعة الأساسية في أعمال مختار، والتي مثلت المرأة في أوضاع مختلفة، حتى عندما تناول مختار موضوعات مثل الراحة والقيلولة والحزن، كانت المرأة هي الرمز دائمًا.

وقد ربط مختار أيضًا بين المرأة وبين تراثنا المصري القديم في مجموعة من الأعمال الرمزية مثل تمثال "كاتمة الأسرار" و"إيزيس" و"عروس النيل" وغيرها، والتي اختار لها موضوعات مرتبطة بالحضارة المصرية القديمة وجسدها أيضًا من خلال المرأة.

لقد كان مختار دائم التمرد على ثوابت هذا المجتمع وانقطع هذا التمرد برحيله في مارس عام ١٩٣٤، لكن إذا كان مختار قد رحل وتوقف إنتاجه الفني، فإن رحلة التمرد مازالت في حاجة إلى متمردين جدد حتى تنهض مصر مرة أخرى.

مصطفى الرزاز:

نحيي الدكتور عماد أبو غازي على هذا العرض الجميل، وفي الحقيقة فإن منهجه في أن يقدم عرضًا عن أحوال السياسة وأحوال المجتمع ومناهج التمرد كان موفقًا، ونحن في أشد الحاجة إلى الكتابة في الفن والبحث فيه وفي الثقافة من خلال الحراك الاجتماعي والحراك السياسي وليس فقط من خلال نسب التمثال أو شكله أو الأسلوب الذي تشكل على أساسه، لأن الأساس هو الحديث عن العمل الفني من محيطه الثقافي ومحيطه الفكري والذي تولد منه وتفاعل معه وأثر فيه. ولم يتصادف التقاء مختار بسعد زغلول وزملائه لجعله ينجرف ناحية السياسة، بل إنه بسبب ارتباطاته المبكرة بالحركة السياسية والوطنية وبفكرة التمرد يعد واحدًا من زعماء ثورة ١٩١٩ مثله في ذلك مثل سيد درويش، فهما وغيرهما لم يكونا فقط مساندين للثورة، بل كانا من أدواتها الفاعلة ومن أدوات استفزاز السلطة وتحدي الحكم والانحياز للفلاحين وللمصريين البسطاء، وأحيانًا يحدث أن تنحي دور

الفن باعتباره دورًا هامشيًّا، ولكن في الحقيقة إذا أردنا أن نؤرخ حقيقةً فلابد أن نضع محمود مختار وسيد درويش من أهم قيادات ثورة ١٩١٩ ومن أهم أدواتها الفاعلة.

سعيد حسن زلط:

أتشرف بعرض هذه الاقتراحات التاريخية الوطنية، ولنتذكر الآلام التاريخية والجهود الكبيرة المضنية لإنشاء تمثال "نهضة مصر" في بداية القرن العشرين، وأقترح الاستفادة من القاعدة الخالية بميدان الشهداء بمحطة الإسكندرية للسكة الحديد التي كان سيوضع عليها تمثال الملك أحمد فؤاد عام ١٩٥٠، و نقترح اقتراحًا وطنيـــًا بضرورة وضع تمثال الزعيم الوطني الخالد جمال عبد الناصر عليها، كما أوصي بضرورة عودة احترام تسلسل الحلقات في التاريخ المصري بعودة تمثال المهندس فرديناند ديليسبس على قاعدته المهجورة المنسوفة في بورسعيد، وضرورة وضع تمثال سعيد باشا مُنشئ قناة السويس، وضرورة وضع تمثال للزعيم مؤمم قناة السويس جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٦ وضرورة وضع تمثال لشهيد السلام وصاحب عودة الملاحة في قناة السويس محمد أنور السادات. وأؤكد أيضًا على ضرورة وضع تمثال الخديوي إسماعيل على قاعدته الأصلية أمام الميناء الشرقي احترامًا للتسلسل التاريخي للأحداث في مصر، وضرورة نشر المسلات المهملة في الأقصر ووادي الملوك في ميادين مصر، وكفانا ما سُرق من مسلات في العالم الأوروبي والأمريكي ولنتذكر للأسف أن تمثال الحرية كان مخصصًا كهدية من فرنسا لقناة السويس بمناسبة افتتاحها ولكنه رُفض لأسباب غير معلومة وضل طريقه إلى نيويورك.

عبد المحسن حمودة (مهندس):

لقد استفدت كثيرًا من عرض الدكتور عماد أبو غازي، خاصة وأنه ربط الفن بالحركة الوطنية وثورة ١٩١٩. لكن يهمنا أيضًا أن نتخذ العبرة لتمتد الفائدة إلى ما نحن فيه من ناحية التخليد لفن النحت، وقد تعرضت المحاضرة إلى أنه في وقت من الأوقات لم يكن يُخلد بصناعة التماثيل إلا رجال السرايا الملكية والحكام والسلاطين، لكنه أغفل دون تعمُّد إقامة ما يخلد ذكرى استمرار الحركة الوطنية وهو الغائب الذي لو لجأنا إليه لحدثت صحوة في الشباب والأجيال الحاضرة التي تجهل تاريخ مصر وأقصد هنا خليفة سعد زغلول زعيم الأمة مصطفى النحاس الذي تم تجاهله تمامًا كما تم تجاهل الكثيرين. إن ذكر اسم مصطفى النحاس على شارع أو ميدان أو تمثال ليس تخليدًا لذكرى شخص أو زعيم فقط ولكنه إشارة من التاريخ بأنه لابد أن يشعر المصريون بأن مصر بحركاتها الوطنية لازالت رائدة الكفاح والاستقلال في هذه المنطقة، وقد قمت بالتعاون مع مجموعة من الزملاء بمحاولة بدأت من عشرين عامًا لتخليد اسم مصطفى باشا النحاس بوضعه على أحد

الشوارع أو الميادين فلم ننجح، فلجأنا إلى المطالبة بإقامة تمثال له في أضخم الميادين التي تمتُّ إليه بصلة والتي صنعها وهو ميدان التحرير، وقد وُفقنا أخيرا بصدور حكم من محكمة القضاء الإداري بإقامة تمثال للزعيم مصطفى النحاس في ميدان التحرير، وقد امتثل المحافظ ووزير الثقافة لإقامة هذا التمثال في الميدان وأؤكد أن هناك العشرات المستعدين لتغطية تكاليف إقامة هذا التمثال في ميدان التحرير لهذا الزعيم لإحياء تاريخه. وكان شرط الجهات المختصة بالدولة أنه في حالة إقامة هذا التمثال في ميدان التحرير لا يسمى ميدان مصطفى النحاس لأن ميدان التحرير هو عاصمة القاهرة والتي تعتبر بدورها عاصمة القطر المصري وميدان التحرير مرتبط بالخديوي إسماعيل وبسكنات قصر النيل، ولكننا نقول إن هذا الميدان من صنع ولا أقول ملك زعيم الأمة مصطفى النحاس، لأن في هذا الميدان ازدهرت كل مواقفه وآخرها جنازته بعد حصاره لمدة ١٣ عامًا، وقد أصبحت جنازته رمزًا للتاريخ. أقول هذا و أرجو أن يكون هناك من يريد أن ينضم إلى هذه الحركة لإقامة تمثال لمصطفى النحاس لا تخليدًا لذكراه فقط ولكن لتكون صحوة لأبنائنا ليفتخروا بتاريخ بلادهم وأجدادهم.

عادل أبو الخير (طبيب جراح):

كنت أريد أن أعلق على تمثال "نهضة مصر" وأنه كان بالفعل رمزًا لنهضتها لأن مصر في وقتها كانت في حالة يرثى لها من التأخر الفكري والمادي والاجتماعي والعلمي. كما أنني أود أن أسأل الدكتور عماد أبوغازي عن وجهة نظره في النكسة التي تحدث هذه الأيام من ارتداد المرأة إلى ارتداء الحجاب الذي كان أجدادها منذ مائة عام ينادون بتركه.

صفاء فؤاد صالح (أستاذ معهد البحوث للإرشاد الزراعي):

عندي ثلاثة استفسارات بها شق اجتماعي ثقافي وشق سياسي وشق تنموي، وأبدأ بالاجتماعي الثقافي وهو ما يشغلنا في الوقت الحاضر، فالمحاضرة التي قام الدكتور عماد أبو غازي بتقديمها مفيدة ومتميزة، لكن مجموعة الأفراد الوطنيين مثل محمود مختار وغيره، والتي تألقت في العشرينيات والثلاثينيات وما قبل ذلك بدأ ينقرض جيلهم، لذلك لابد من كتابة ورقة عمل عن أعمالهم أو حتى أن تكون هناك مجلة ثقافية لتثقيف الجيل الجديد من الشباب الذي نتهمه دومًا بالجهل والتفاهة وهو في الواقع مظلوم لأنه لا يجد لنفسه هدفًا ولا قدوة وأمثال محمود مختار من الأجداد الذين يُفتخَر بهم، وهم ليسوا فقط ملك من عاصرهم ولكن ملك أيضًا لشباب اليوم، هذا الشباب يجب أن يعرف هذه الشخصيات، لأن الشباب الآن لا يعرف من الذي يوصل له المعلومات ولا يجد من يوضحها له. النقطة الثانية هي أننا اليوم نهاجَم من جميع شعوب العالم لأسباب منها أن حق المرأة مهضوم في مصر، وأنا واحدة من الناس أؤكد أن حق المرأة ليس مهضومًا، ولكن كم شخص يعرف

ذلك في الخارج؟ ومن هنا من الممكن استخدام فن محمود مختار الذي كان ذكيـــًا بالقدر الكافي الذي يجعله يختار المرأة المصرية موضوعًا لأعماله على الرغم من أنه قد أنتج هذا الفن في العشرينيات من القرن العشرين ونحن اليوم في عام ٢٠٠٦، لقد سبق مختار عصره بتفكيره واحترامه للمرأة بأن أبرز دورها وقدم لها شكلا جميلا ومحتشمًا وهو ما ندعو الآن إلى ترويجه عن طريق الفضائيات لتعميم هذه النظرة وهذه الثقافة. ثالثا، أود أن أثني على بعد نظر محمود مختار في الجانب التنموي، فعندما قام محمود مختار بصناعة تمثال "نهضة مصر" ممثلا الفلاحة المصرية كان في قمة الذكاء، لأن المرأة المصرية بالفعل هي التي تقوم بالنهضة فهي التي تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية، وهي التي ترسخ العادات والتقاليد والطموح في أولادها أو عدمه، إنها الأم المصرية التي كانت في الماضي غير مُتعلمة واليوم أصبحت مُتعلمة، وأذكر برنامجًا في رمضان كان يجمع مشاهير مصر ويسألهم عن شجرة الكافور في حياتهم وعن الشخص الذي دعمهم لكي يصلوا إلى هذه المكانة فأجمع كل منهم على أنها أمه الريفية البسيطة الساذجة، هذه الفلاحة المصرية هي التي قدمت لنا طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم من عظماء مصر.

مصطفى الرزاز:

أريد أن أؤكد على أن الفلاحة البسيطة ليست بالضرورة ساذجة، فمن الممكن أن تكون حكيمة لكنها ليست بالضرورة ساذجة.

محمد مصطفى:

أريد التعقيب على الأستاذ الذي تفضل بطلب تخليد ذكرى زعيم الأمة مصطفى النحاس، وأتساءل ألم نقرأ في التاريخ أن مصطفى النحاس جاء على ظهر دبابة إنجليزية وكان السبب في إهانة الملك وأهان مصر في حادث ٤ فبراير. أدعو إلى قراءة كتاب عنوانه "سقوط نظام" لمحمد حسنين هيكل للتعرف على مصطفى النحاس جيدًا.

محمد حسني (من التربية والتعليم):

أين الحلقة الفنية في مصر في ظل هدم الفيلات الأثرية والمباني القديمة ذات الطابع المعماري الجميل؟ وفي هذا السياق من الممكن أن نتساءل: هل هناك محمود مختار آخر سيظهر؟ ولماذا ربط الدكتور عماد أبو غازي بين النهضة والتمرد؟

عماد أبو غازي:

أود أن أبدأ بكلمة الزميل الذي تناول الزعيم مصطفى النحاس وشكك في زعامته ووطنيته، التاريخ عبارة عن وجهات نظر، لكن مصر في عام ١٩٤٢ في الحادث الشهير "٤ فبراير"، كانت أمام محك بأن هناك فاشية تصعد في العالم كله مع وجود حزب يمتلك الأغلبية الحقيقية في مصر وهو حزب الوفد الذي يرأسه مصطفى النحاس، والذي سُرقت أغلبيته الشعبية بانتخابات مزورة، وكانت القوات النازية الألمانية تتقدم في اتجاه الإسكندرية، وكان إنقاذ الموقف في الداخل يقتضي أولاً وجود حكومة شعبية، وثانيًا تؤمن بالديمقراطية، لأن الحكومات التي كان يشكلها الملك فاروق كانت تتآمر في الخفاء مع إيطاليا وألمانيا، وكان هناك صعود لقوة فاشية في مصر ممثله بحزب "مصر الفتاة" وأيضًا "الإخوان المسلمون"، والذين كان توجههم الأساسي يميل إلى القوة الفاشية الصاعدة في العالم والتي كانوا يتصورون أنها من الممكن أن تنتصر. وبالنسبة لموقف مصطفى النحاس في فبراير ١٩٤٢ في تقديري هو أكثر المواقف حكمة، وربما يكون من المواقف الفاصلة في تاريخ الإنسانية وليس فقط في تاريخ مصر لأنه كان موقفًا يدعم انتصار الديمقراطية وقهر الفاشية على مستوى العالم وفي هذا الوقت، كانت تُروَّج وسط قطاعات من الشباب فكرة أن النازية والفاشية ستحرر مصر من الاحتلال الإنجليزي، ولكن في حقيقة الأمر كانت أسطورة كاذبة وكانت المظاهرات تهتف في الشوارع "إلى الأمام يا روميل"، ولو كان روميل قد دخل القاهرة لكانت مصر ستذوق ويلات أكثر بكثير من ما كانت فيه في ظل الاحتلال البريطاني، وعندما قبل النحاس باشا تولي الوزارة ورفض أن يدخل في ظل ائتلاف مع الأحزاب الأخرى لتجربته المريرة في الائتلافات السابقة، فإنه كان يستعيد حقًّا مسلوبًا من حزب الأغلبية الشعبية الذي يُعبِّر عن غالبية الشعب المصري بالفعل والذي كان يفوز في أية انتخابات نزيهة وغير مزورة دارت بين صدور دستور ٢٣ وانقلاب يوليو ١٩٥٢، فقد كان حزب الوفد يمثل الأغلبية الحقيقية، ومن الناحية الأخرى كان يحسم معركة بين الفاشية الصاعدة والقوة الديمقراطية. إن لمصطفى النحاس تاريخ وطني طويل لا يمكن إغفاله ولا يوجد زعيم أُهدر تاريخه وحقه مثلما أُهدر تاريخ مصطفى النحاس، وعندما رحل هذا الزعيم العظيم كنت طفلاً في العاشرة من عمري، ورأيت كيف خرج ملايين في جنازته يحملون نعشه في جنازة شعبية من الجنازات النادرة في تاريخ مصر، جنازة تليق بزعيم حقيقي من زعماء مصر، وذلك رغم الحصار والحجب والتشويه الذي تعرض له على مدى ١٣ سنة منذ انقلاب يوليو حتى وفاته تعرض فيها لتحديد إقامته، لم يكن في مقدرة أحد ذكر اسمه إلا مقرونـــاً بالسباب دون أن يجد من يدافع عنه.

وبعد كل هذا إن المشكلة الحقيقية هي أن أغلب وثائقنا مازال محجوبًا للأسف، ولن يظهر الجزء الأكبر من الحقيقة إلا بعد الاطلاع على هذه الوثائق، وأود أن أؤكد على أن النحاس باشا كان متمردًا حتى على نفسه، فقد ألغى معاهدة ٣٦ سنة ١٩٥١ والذي كان هو الموقِّع عليها، وعندما

دعمت حكومة الوفد الأخيرة المقاومة الشعبية في القناة ضد الوجود البريطاني كان النحاس باشا على رأس السلطة وكان يتمرد على هذه السلطة، وبسبب ذلك وقع حريق القاهرة، ولهذا السبب تم إبعاد الوفد للتخلص من هذا الزعيم المتمرد والنبيل.

وحول المؤثرات الأسرية التي ساعدت مختار على أن يصل إلى ما وصل إليه، أقول إنه بالطبع كانت هناك مؤثرات أسرية، وهذا يرتبط بموضوع المرأة لأن والدة محمود مختار كانت فلاحة متمردة وهي التي أكسبته هذه الروح من التمرد، وعندما شعرت أن زوجها الذي كان له أبناء من زوجة رحلت قبلها كان يميز بين أبنائه من زوجته الأولى وبين أولادها رفضت الاستمرار معه وكانت هذه الأحداث في أواخر القرن التاسع عشر حيث أصرت على الانفصال عنه والعودة إلى بيت أسرتها ثم ترك بيت أسرتها والسفر للعيش في القاهرة، وأعتقد أن تمرد والدته كان مؤثرًا عليه.

من ناحية أخرى، كان أخواته غير الأشقاء يعتبرون أن دراسته في الفنون تعني أن يكون نقاشًا، فتمرد أيضًا على هذه الأسرة وأسقط اسم عائلته لأن اسم "محمود مختار" هو اسمه الشخصي الذي استخدمه بعد أن أسقط لقب أسرته وهو "العيسوي" وذكر أنه ينتمي إلى نفسه وكل هذا من المؤثرات الأسرية، هذا بالإضافة إلى قبول الأم التي كانت تحلم أن يكون ابنها شيخًا أزهريًّا أن تترك له الحرية بأن يدرس دراسة لم يتوقع أحد لها مستقبلاً، وهذا بالتأكيد كان عنصر مساعد له.

وحول الانتماء السياسي والحزبي لمختار أقول إنه لم ينضم لأحزاب، لقد كان في البداية مسانداً بقوة للوفد وكان في جمعية "الطلبة المصريين"، وفي أوراقه التي بدأت بترتيبها مؤخرًا وجدت في بعض الرسائل ما يُذكر فيها أنه ترك الجمعية لأسباب سياسية لأنه شعر بمشكلات بداخلها وأنه يشك في بعض الأمور التي تحدث بها، وكان الأقرب لمجموعة السياسة الأسبوعية التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين دون الانتماء لهم وكان ينتقد سعد زغلول دون أن يعاديه، وكان موقفه الأساسي هو الانتماء لقيم الديمقراطية بشكل أساسي وأن يكون مع من ينتمي إليها.

وحول دور الشعب المصري في ظهور تمثال "نهضة مصر" والمواطنين ونظرتهم للفن التشكيلي وبالأخص ما يحدث من ردة من قِبل الطلاب المنتمين لكليات الفنون الجميلة، أقول إن هذه كارثة من كوارثنا، وهذا الأمر مرتبط بالسؤال حول الحالة التي ارتدت إليها المرأة المصرية. لقد كان هناك دعم شعبي قوي جدًّا لتمثال "نهضة مصر" وللفن بشكل عام، وهذا يثبت فساد الآراء التي تتردد في بعض الصحف والمقالات وتقول: إن الشعب لا يحب فن النحت ويسخر منه، إن هذا الحديث لا أساس له من الصحة، وإن كان يدل على شيء فإنه يدل على عدم وعي وإدراك من يردد هذا الكلام،

وبالنسبة للشعب المصري فإن فن النحت هو فنه الأساسي وسيظل بداخله، وقد بدأ مختار بصنع التماثيل من الطين في القرية لأن داخل كل طفل مصري نحات، ونحن نعيش حياتنا في وسط تراث من تاريخ طويل من النحت ممتد لأكثر من ٥٠٠٠ سنة، وما يحدث الآن هو مجرد وافد سيزول، وافد بتأثير الهجرة التي حدثت بعد عام ١٩٦٧ لدول الخليج والتأثر بالفكر الوهّابي والفكر البدوي الصحراوي الذي لا يرى في العمل الفني أية قيمة وكل اهتمامه بالتدين الشكلي والظاهري الذي لا علاقة له بروح الدين ولا بروح الحياة، ولكن كل اهتمامه بشكليات ومظاهر دون اهتمام بجوهر حقيقي، وهذه ظواهر موجودة بالفعل في حياتنا ونعتقد أنها ظواهر طارئة وكما تخلصت المرأة من قيودها في مطلع القرن العشرين فإنها ستتخلص منها مرة أخرى ولن يستمر هذا الوضع الغريب على تاريخنا لأن مصر حضارة قامت المرأة ببنائها، ومصر من المجتمعات التي صنعت الثورة الأولى في تاريخ البشرية وهي الثورة الزراعية، والثورة الزراعية من صناعة المرأة وليست فقط صناعة الرجل، فالمرأة هي التي نقلت البشرية من مرحلة الجمع والالتقاط والصيد إلى مرحلة الاستقرار والزراعة وفي داخل مجتمعاتنا حتى في المجتمعات التي يبدو فيها أنها مجتمعات ذكورية، والرجل فيها مسيطر مثل مجتمعات الوجه القبلي، المرأة هي الحاكمة الحقيقية للأسرة وللمجتمع وهذا هو تراثنا والذي سيتغلب على تأثيرات الوهّابية الوافدة والتي سوف تزول عاجلاً أم آجلاً، وكما قضى محمد علي على الحركة الوهّابية الأولى فستزول الحركة الوهّابية الثانية أو الثالثة.

إن المرأة المصرية الفلاحة لم تكن أبدًا محجبة أو منقبة أو محتبئة، فالفلاحة المصرية تشارك الرجل في عمله في الحقل كتفًا بكتف، ولكن القضية كانت عند المرأة التي تنتمي إلى الطبقة المتوسطة والأرستقراطية أي المرأة في مجتمعات المدينة وفي المجتمعات العليا بالتحديد، تلك هي التي خلعت حجابها بعد ثورة ١٩١٩، ولكن الغطاء الذي كانت ولازالت تضعه الفلاحة على رأسها ليس له أية علاقة بالحجاب ولكنه يرتبط بالزي التقليدي لها. وبالنسبة لخروج المرأة للحياة العامة ومشاركتها في العمل الحديث، فإنه مرتبط باندماجها في حركة سياسية وفي حركة نهضة، وعندما نعود مرة أخرى إلى حركة نهضة جديدة ستعود المرأة مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل. إن هذه النهضة ليست كثيرة على مصر ولا على المصريين، وستظهر عندما نتشبع بروح التمرد مرة أخرى، وإن ما افتقدناه هو غياب هذه الروح، لقد غابت عنا روح التمرد منذ ٥٠ عامًا، حيث كنا مؤمنين لا نتمرد ولا ندعو للتغيير، لقد كان جيل مختار متمردًا على مجتمعه وعلى الفن السائد والقيم السائدة، وكما قلت كان سيد درويش متمرداً، وفي طريقي إلى هنا كنت أسمع في السيارة أغنيات لسيد درويش وسمعت إلى أي حد كان هذا التمرد في الأغاني وفي الموسيقى وفي اختيار الكلمات، ولو قام الشباب اليوم بغناء مثل هذا النوع سنهاجمه وسنعتبره إسفافًا في حين أن هذا هو الذي يغير مجتمعاتنا، إن تبني الجديد والغريب هو الإبداع. وقد كان طه حسين متمردًا بطرحه منهج الشك في كتاباته، وكان

العقاد متمردًا رغم محافظته الشديدة، ولكنه بدأ وهو شاب متمرد في السياسة ومتمرد في الشعر وفي النقد الأدبي، وكان هيكل متمردًا عندما كتب رواية "زينب"، فالتمرد هو الذي سيصنع نهضة جديدة والتمرد على الثوابت وعلى القيود المجتمعية التي نفرضها على عقولنا والتي تحجبنا عن استكشاف الحقيقة، إن الحرية هي التي ستدفعنا إلى الأمام و لهذا السبب قمت بالربط بين التمرد وبين النهضة.

وهناك مشكلة حقيقية أيضًا ساعدت على تدهور أوضاعنا وهي ظهور فتاوى تحريم النحت، ومنذ سنة ١٩٥٢ دخلنا في منافسة بين الدولة وجماعات الإسلام السياسي ومحاولة إثبات من منهما يمثل الدين أكثر من الآخر، إن قيم الدولة المدنية التي أُرسيت طوال ١٥٠ سنة من نضال الشعب المصري منذ أوائل القرن التاسع عشر انهارت وتراجعت لحساب قيم الدولة الدينية بعد انقلاب يوليو، وعندما تعود قيم الدولة المدنية مرة أخرى لتحكمنا ستعود نهضتنا مرة أخرى وسيعود تحرك مجتمعنا.

وحول الشباب أقول إن الشباب المعاصر في تقديري أفضل ممن سبقوه، ويجب علينا أن نتيح لهم الفرصة لأن الأجيال الجديدة لديها وسائل للمعرفة لم تكن متوفرة لمن سبقها، ومن هنا يجب أن نعطي لهم الفرص وليس فقط أن نعطي لهم المواعظ، نعطي لهم الفرصة لكي يُبدعوا ويتقدموا، وعندما قام مختار وسيد درويش بتقديم إنجازهم كانوا شبابًا في العشرينيات والثلاثينيات، ويجب أن نترك لأولادنا مساحة من الحرية ونترك لهم العنان قليلاً لكي تنهض هذه الأمة.

وحول السؤال عن إمكانية ظهور محمود مختار آخر والقول بأن حركة الفن التشكيلي تدهورت انطلاقـــًا من الوضع في الكليات الفنية، أتصور أنه رغم ما يحدث الآن في كليات الفنون الجميلة ورغم دخول الطلبة واعتراضهم على الفن، فإن هناك حركة فنية غنية في مصر، وأعتقد أن السبب في ما يحدث في كليات الفنون يرجع إلى أن كثيرين ممن يلتحقون بها يدخلون الكلية اعتمادًا على التنسيق والمجموع وليس للرغبة في دخول الكلية، بالإضافة طبعـــًا للدور السلبي الذي تلعبه الجماعات السلفية والدعاة الجدد الذين يتغلغلون في عقول الشباب دون أن يجدوا من يتصدى لهم. ورغم ذلك أزعم أن حركة الفن التشكيلي في مصر ناهضة ومتقدمة، إن الجيل الأول من الرواد جيل مختار وراغب عياد ويوسف كامل أثمر ثمارًا كثيرة وممتدة ومتواصلة، وهناك حركة تشكيلية مصرية ولها وضعها ولها مكانتها، ولكنها تحتاج إلى أن نلقي عليها الضوء للعالم، لأن لدينا فنانين تشكيليين على مستوى عالٍ، وحركة الإبداع لم تتوقف بعد جيل الرواد، لكن الفكرة أن الرائد له بريق الريادة فهو لا يكرر ما قام به من قبله، ومن يأتي بعده لن يكون له البريق ذاته من ناحية لأن الرواد سبقوه

ومن ناحية أخرى لأن حركة الإبداع أصبحت أكثر اتساعـــاً، وأنا لا أستطيع أن أقول إننا في حاجة إلى مختار آخر، ولكننا نريد مبدعين آخرين يمثلون ذواتهم دون إعادة إنتاج الماضي.

مصطفى الرزاز:

في الختام، أتقدم بخالص الشكر للدكتور عماد أبو غازي على هذه المحاضرة الشيقة والممتعة.